(سورة الفرقان)

{ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً }
{ ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً
وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً }
{ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ
لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً }

{ تبارك الذي } أي: تكاثر خير الذي { نزّل الفرقان } وتزايد، لأن إنزال الفرقان هو إظهار العقل الفرقاني المخصوص بعبده المخصوص به بانفراده من جملة العالمين بالاستعداد الكامل الذي لم يكن لأحد مثله، فيكون عقله الفرقاني هو العقل المحيط المسمى عقل الكل، الجامع لكمالات جميع العقول، وذلك إنما يكون بظهوره تعالى في مظهره المحمدي بجميع صفاته المفيض بها على جميع الخلائق على اختلاف استعداداتهم، وذلك الظهور هو تكثر الخير وتزايده الذي لم يمكن أزيد ولا أكثر منه، ولذلك قال: { ليكون للعالمين نذيراً }

أي: على العموم، فإن كل نبيّ غيره كانت رسالته مخصوصة بمن ناسب استعداده من الخلائق، ورسالته عليه السلام عامة للكل، وهو بعينه معنى ختم النبوّة ومن هذا تبين كون أمتة خير الأمم.{ الذي له مُلْك السماوات والأرض } يقهرهما تحت ملكوته، أوجد كل شيء موسوماً، يتعين بسمة الإمكان، ويشهد عليه بالعدم { فقدّره تقديراً } على قدر قبول بعض صفاته ومظهرية بعض كمالاته دون بعض، أي: هيأ استعداداتهم لما شاء من كمالاتهم التي هي صفاته.

{ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ
وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً }
{ وَقَالُواْ أَسَاطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }
{ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً }

{ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلأَسْوَاقِ
لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً }
{ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا
وَقَالَ ٱلظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً }
{ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً }
{ تَبَارَكَ ٱلَّذِي إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذٰلِكَ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً }
{ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيراً }
{ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً }
{ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً }
{ لاَّ تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَٱدْعُواْ ثُبُوراً كَثِيراً }
{ قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيراً }
{ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً }
{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ
أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ }
{ قَالُواْ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ
وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً }
{ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً
وَلاَ نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً }
{ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ
فِي ٱلأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً }

{ قل أنزله الذي يعلم } الغيب المخفي عن المجحوبين في العالمين
{ إنه كان غفوراً } يستر صفات النفوس الحاجبة للغيوب بأنوار صفاته { رحيماً }
يفيض الكمالات على القلوب عند صفائها بحسب الاستعدادات. ومن غفرانه ورحمته هذا الإنزال الذي تشّكون فيه أيها المحجوبون { بل كذّبوا } بالقيامة الكبرى، وذلك التكذيب إنما يكون لفرط الاحتجاب أو نقصان الاستعداد، وكلاهما يوجب التعذيب بالعذاب لاستيلاء نيران الطبيعة الجسمانية والهيئات الهيولانية على النفوس الظلمانية بالضرورة وتأثير زبانية النفوس السماوية والأرضية فيها التي إذا قابلتهم باستعداد قبول تأثيرها وقهرها من بعيد لكونها تكون في الجهة السفلية ظهر لهم آثار قهرها وتسلط غضب تأثيرها.
{ وإذا ألقوا } من جملة أماكن نار الطبيعة الحرمانية { مكاناً ضيقاً } يحبسها في برزخ يناسب هيئاتها مقدّر بقدر استعدادها { مقرّنين } بسلاسل محبة السفلانيات وهوى الشهوات، تمنعها عن الحركة في تحصيل المرادات وأغلال صور هيولانية مانعة لأطرافها وآلاتها عن مباشرة الحركات في طلب الشهوات، ومقرّنين بما يجانسهم من الشياطين المغوية إياهم عن سبيل الرشاد والداعية لهم إلى الضلال { دعوا هنالك ثبوراً } بتمني الموت والتحسر على الفوت، لكونهم من الشدة فيما يتمنى فيه الموت.
{ قل أذلك خير أم جنّة } عالم القدس الموعودة للمجرّدين عن ملابس الأبدان وصفات النفوس { لهم فيها ما يشاؤون } من اللذات الروحانية أبداً سرمداً { وما يعبدون } عامّ لكل معبود سوى الله، والقول إنما يكون بلسان الحال لأن كل شيء سوى الإنسان المحجوب شاهد بوجوده ووجده بالله تعالى ووحدانيته، مسبّح له بإظهار خاصيته وكماله، مطيع له فيما أراد الله من أفعاله، وذلك معنى قوله: { سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء } فحالهم ناطقة بنفي الضلال عن نفسهم في إثبات الضلال للواقفين معهم، المحجوبين بهم بسبب الانهماك في اللذّات الحسيّة والاشتغال بالطيبات الدنيوية الموجبة للغفلة ونسيان الذكر والبور الهلكى.

{ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً }

{ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً }

{ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً }

{ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً }

{ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَامِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً }

{ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى ٱلْكَافِرِينَ عَسِيراً }

{ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين } لأن ذلك اليوم هو وقت وقوع القيامة الصغرى وإخراب البدن الذي به تؤثر فيهم الروحانيات السماوية والأرضية بالقهر والتعذيب وإلزام الهيئات البرزخية المنافية لطباع أرواحهم في الأصل، وإن كانت مناسبة لها في الحال { ويقولون حجراً محجوراً }

يتمنون أن يدفع الله عنهم ذلك ويمنعه. وإنما جعلت أعمالهم هباء لكونها غير مبنية على عقائد صحيحة.

والأصل في العمل الإيمان اللازم لسلامة الفطرة وإذا لم يكن كان كل حسنة سيئة لمقارنتها النية الفاسدة والتوجه بها لغير وجه الله.

{ ويوم تشقق } سماء الروح الحيواني بغمام الروح الإنساني بانفتاحها عنه، ولهذا قيل في التفاسير: إنه غمام أبيض دقيق. وإنما شبّه بالغمام لاكتسابه الهيئة الجسدانية والصورة اللطيفة النفسانية من البدن واحتجابه بها وكونه منشأ العلم كالغمام للماء، وفي تلك الصورة الثواب والعقاب قبل البعث الجسداني { ونزّل الملائكة } باتصالها به إما للثواب وإما للعقاب لأنها إما مظاهر اللطف وإما مظاهر القهر.

{ الملك يومئذ الحق } أي: الثابت الي لا يتغير { للرحمن } الموصوف بجميع صفات اللطف والقهر، المفيض على كل ما يستحق لزوال كل ملك باطل ولا قدرة حينئذ لأحد على إنجاء المعذبين منه ولا يمكنهم الالتجاء بغيره لبطلان التعلقات والإضافات وظهور ملك الرحمن على الإطلاق.

أو يوم تشقق سماء القلب بغمام نور السكينة وتنزّل ملائكة القوى الروحانية بالأمداد الإلهية والأنوار الصفاتية في القيامة الوسطى تكون تلك السلطنة على القلب للرحمن المستوي على عرشه، المتجلى له بجميع صفاته { و } على كلا التقديرين { كان يوماً على الكافرين عسيراً } أما على الأول فلتعذبهم عند خراب البدن بالهيئات المظلمة وقهر القوى السماوية، وأما على الثاني فلظهور تعذّبهم في شهود صاحب هذه القيامة واطلاعه، ولم يوجد موجوداً مستقلاً في التأثير فيناسبه ولم يكن قاهر غيره فيشاركه على حالهم أو للبناء على تأويلهم بالقوى النفسانية المقهورة هناك، المعذبة بالرياضة، والله أعلم.

{ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً }

*** { يٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً }**

{ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً }

{ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنَ مَهْجُوراً }

{ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً }

{ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً }

تثبيت فؤاده عليه السلام بالقرآن هو أنه لما ردّ في مقام البقاء بعد الفناء إلى حجاب القلب لهداية الخلق كان قد يظهر نفسه وقتاً غبّ وقت على قلبه بصفاتها، ويحدث له التلوين بسببها كما ذكر في قوله:

{ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِيۤ أُمْنِيَّتِهِ }[الحج، الآية:٥٢]، وفي قوله:

{ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ }[عبس، الآية:١]

فكان يتداركه الله تعالى بإنزال الوحي والجذبة ويؤدّبه ويعاتبه فيرجع إليه في كل حال ويتوب، كما قال عليه السلام:

« أدّبني ربّي فأحسن تأديبي » وقال صلى الله عليه وسلم:

« **إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة** «

حتى يتمكن ويستقيم وكان سبب ظهور ابتلاء الله تعالى إياه بالدعوة لإيذاء الناس إياه وعداوتهم ومناصبتهم له، والحكمة في الابتلاء أمران، أحدهما: راجع إليه، وهو أن يظهر نفسه بجميع صفاتها في مقابلة استيلاء الأعداء المختلفين في النفوس وصفاتها واستعداداتها ومراتبها فيؤدّبه الله بحكمة وجود كل صفة وفضيلة كل قوة، فيحصل له جميع مكارم الأخلاق وكمالات جميع الأنبياء كما قال عليه السلام: « **بُعِثت لأتمم مكارم الأخلاق، وأوتيت جوامع الكلم** «.

فإن ظهوره بكل صفة هو ظرف قبوله لفضيلتها وحكمتها، إذ لولا الجهات المختلفة في القلب بواسطة صفات النفس لما استعدّ لقبول الحكم المتفننة والفضائل بتخصص توجهه لكل واحدة منها.

والثاني: راجع إلى الأمّة، فإنه رسول إلى الكل واستعداداتهم متباينة، ونفوسهم في الصفات متفاوتة.

فيجب أن يكون فيه جوامع الحكم والكِلَم والفضائل والأخلاق ليهدي كلاً منهم بما يناسبه من الحكمة، ويزكيه بما يليق به من الخلق، ويعلّمه ما ينتفع به من العلم على حسب استعداداتهم وصفاتهم وإلا لم يمكنه دعاء الكل.

فعلى هذا كون التنزيل مفرّقاً منجماً إنما يكون بحسب اختلاف صفات نفسه في الظهور منها على أوقاته موجباً لتثبت قلبه في الاستقامة في السلوك إلى الله، وفي الله عند الاتصاف بصفاته، ومن الله في هداية الخلق، وتلك هي الاستقامة التامة المطلقة. فليقتدي به السالكون والواصلون والكاملون المكملون في سلوكهم وكونهم مع الحق وتكميلهم والترتيل هو أن يتخلل بين كل نجم وآخر مدة يمكن فيها تزايله في قلبه ويترسخ ويصير ملكة لا حالاً.

{ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً }

{ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً }

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً }

{ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً }

{ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ
وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً }
{ وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَأَصْحَابَ ٱلرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً }
{ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ ٱلأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً }
{ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ
أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً }
{ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَـٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً }
{ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا
وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً }
{ أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً }
{ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ
إِنْ هُمْ إِلاَّ كَٱلأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً }
{ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً
ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً } { ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً }

ومن هذا تبين معنى قوله: { ولا يأتونك بمثل } أي: صفة عجيبة
{ إلا جئناك بالحق } الذي يقمع باطل تلك الصفة كما قال:

{ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ }[الأنبياء: الآية:١٨]

وهو الفضيلة المقابلة لتلك الرذيلة { وأحسن تفسيراً }

أي: كشفاً بإظهار صفة إلهية تجلى بها لك تقوم مقامها فتكشفها، وبالحقيقة تلك الصفة الإلهية الكاشفة إياها هي تفسير الصفة الباطلة ومعاناتها فإن كل صفة نفسانية ظلّ ظلماني لصفة إلهية نورانية تنزّلت في مراتب التنزلات واحتجبت وتضاءلت وتكدّرت كالشهوة للمحبة والغضب للقهر وأمثالها.

{ الذين يحشرون على وجوههم } لشدة ميل نفوسهم لى الجهة السفلية فتنكست فطرتهم فبعثوا على صور وجوهها إلى الأرض يسحبون إلى نار الطبع

{ أولئك شرّ مكاناً } من أن يقبلوا الحق الدامغ لباطل صفاتهم { وأضلّ سبيلاً } من أن يهتدوا إلى صفات الله تعالى التي هي تفسير صفاتهم وكشفها.

{ أرأيت من اتخذ إلهه هواه } كل محجوب بشيء واقف معه، فهو محبّ له، مجانس لذلك الشيء، فهو في الحقيقة عابد لهواه بعبادته لذلك المحبوب، والباعث لهواه على محبة غير الله هو الشيطان، فمحبّ كل شيء غير الله لا لله وبغير محبة الله عابد له ولهواه وللشيطان متعدد المعبود متفرق الوجهة.

أبعدَ ذلك { تكون عليه وكيلاً } بدعوته إلى التوحيد وقد كان في غاية البعد محجوباً بظلّ من ظلاله.

{ ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظل } بالوجود الإضافي. اعلم أن ماهيات الأشياء وحقائق الأعيان هي ظل الحق وصفة عالمية الوجود المطلق، فمدها إظهارها باسمه النور الذي هو الوجود الظاهر الخارجي الذي يظهر به كل شيء ويبرز كتم العدم إلى فضاء الوجود أي الإضافي { ولو شاء لجعله ساكناً }

أي: ثابتاً في العدم الذي هو خزانة وجوده، أي: أمّ الكتاب واللوح المحفوظ الثابث وجود كل شيء فيهما في الباطن وحقيقته لا العدم الصرف بمعنى اللاشيء فإنه لا يقبل الوجود أصلاً، وما ليس له وجود في الباطن وخزانة علم الحق وغيبه لم يمكن وجوده أصلاً في الظاهر، والإيجاد والإعدام ليس إلا إظهار ما هو ثابت في الغيب وإخفاؤه فحسب وهو الظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم

{ ثم جعلنا } شمس العقل { عليه } أي: الظل { دليلاً } يهدي إلى أن حقيقته غير وجوده وإلا فلا مغايرة بينهما في الخارج فلا يوجد إلا الوجود فحسب، إذ لو يمكن وجوده لما كان شيئاً فلا يدلّ على كونه شيئاً غير الوجود إلى العقل

{ ثم قبضناه إلينا } بإفنائه { قبضاً يسيراً } لأن كل ما يفنى من الموجودات في كل وقت فهو يسير بالقياس إلى ما سبق، وسيظهر كل مقبوض عما قليل في مظهر آخر. والقبض دليل على أن الإفناء ليس إعداماً محضاً بل هو منع عن الانتشار في قبضته التي هي العقل الحافظ لصورته وحقيقته أزلاً وأبداً.

{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيلَ لِبَاساً وَٱلنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً }
{ وَهُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ بُشْرَاً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً }
{ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً }

{ وهو الذي جعل لكم } ليل ظلمة النفس { لباساً } يغشاكم بالاستيلاء عن مشاهدة الحق وصفاته والذات وظلالها فتحتجبون يوم الغفلة في الحياة الدنيا { سباتاً } تسبتون بها عن الحياة الحقيقية السرمدية كما قال عليه السلام:

« **الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا** « { وجعل } نهار نور الروح { نشوراً } تحيا قلوبكم به فتنتشرون في فضاء القدس بعد نوم الحسّ.

{ وهو الذي أرسل } رياح النفحات الربانية ناشرة محيية أو مبشرة بين يدي رحمة الكمال بتجلي الصفات { وأنزلنا } من سماء الروح ماء العلم { طهوراً } مطهراً يطهركم عن لوث الرذائل ورجس الطبائع والعقائد الفاسدة والجهالات المفسدة { لنحيي به بلدة ميتاً } أي: قلباً ميتاً بالجهل

{ ونسقيه مما خلقنا أنعاماً } من القوى النفسانية بالعلوم النافعة العملية

{ وأناسيّ } من القوى الروحانية { كثيراً } بالعلوم النظرية.

{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً }
{ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً }
{ فَلاَ تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً }
{ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ
وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً }
{ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً }
{ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ
وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً }
{ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً }

{ قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً }

{ ولقد صرّفناه } هذا العلم المنزّل على صور وأمثال مختلفة { ليذكروا } حقائقهم وأوطانهم الحقيقية وما نسوا من العهد والوصل وطيب الأصل

{ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً } لنعمة الهداية الحقانية، وغمطاً للرحمة الرحيمية للاحتجاب بصور الرحمة في ستور الجلال من الغواشي الهيولانية.

{ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً } أي: فرقنا كمالك المطلق الذي تدعو به جميع الخلق إلى الحق على أشخاص و وزعناه بحسب أصناف الناس على اختلاف استعداداتهم على الأنبياء، كما قال:

{ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }[الرعد، الآية:٧]

، فبعثنا في كل صنف نبيّاً يناسبهم كما كان قبل بعثه محمد من اختصاص موسى ببني إسرائيل واختصاص شعيب بأهل مدين وأصحاب الأيكة وغير ذلك. وخففنا عنك الجهاد، إذ الجهاد إنما يكون بحسب الكمال وكلما كان الكمال أعظم كان الجهاد أكبر لأن الله تعالى يربّ كل طائفة باسم من أسمائه فإذا كان الكامل مظهر جميع صفاته متحققاً بجميع أسمائه وجب عليه الجهاد مع جميع طوائف الأمم بجميع الصفات، ولكن ما فعلنا ذلك لعظم قدرك وكونك الكامل المطلق، والقطب الأعظم، والخاتم على ما ذكر في تأويل قوله:

{ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ } [الفرقان: الآية: ٣٢].

{ فلا تطع } المحجوبين بموافقتهم في الوقوف مع بعض الحجب ونقصان بعض الصفات { وجاهدهم } لكونك مبعوثاً إلى الكل { جهاداً كبيراً } هو أكبر الجهادات كما قال: « ما أوذي نبيّ مثل ما أوذيت « ، أي: ما كمل نبيّ مثل كمالي.

{ وهو الذي مرج البحرين } أي: خلط بحر الجسم والروح في الإيجاد

{ هذا } الذي هو بحر الروح { عذب فرات } أي: صاف لذيذ، وهذا الذي هو بحر الجسم { ملح أجاج } أي: متغير متكدّر غير لذيذ { وجعل بينهما برزخاً } هو النفس الحيوانية الحائلة بينهما من الامتزاج وتكدر الروح بالجسم وتكثفه وتنور الجسم بالروح وتجرّده { وحجراً محجوراً } عياذاً يتعوّذ به كل منهما من بغي الآخر ومانعاً يمنع ذلك.

{ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ
وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً }
{ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً }
{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ
لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً }

{ وتوكل على الحيّ الذي لا يموت } أي: شاهد موت الكل وعدم حراكهم بذواتهم، كما قال: { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ }[الزمر، الآية:٣٠]
فإنهم لا يتحركون إلا بدواع أوجدها الله تعالى فيهم بفناء أفعالك وأفعال الكل في أفعال الحق ورفع حجبها عن أفعاله إذ مقام التوكل هو الفناء في الأفعال.
وبيّن بقوله: { عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لاَ يَمُوتُ } إن منشأ التوكل شهود صفة حياته التي بها يحيا كل حيّ لأن من يموت لا يكون حيّاً بالذات وبالترقي عن مقام فناء الأفعال إلى الفناء في صفة الحياة يصح مقام التوكل كما قالت المتصوفة:
لا يمكن تصحيح كل مقام إلا بالترقي إلى المقام الذي فوقه، وإذا كان كل حيّ يموت إنما يحيا بحي الذات الذي حياته عين ذاته فبه يتحرك، فلا تبال بأفعالهم فإنهم لو اجتمعوا بأسرهم على أن يضّروك بشيء لم يضروك إلا بما كتب الله عليك، على ما ورد في الحديث{ وسبّح بحمده } ونزهه بتجرّدك عن صفاتك ومحوها في صفاته عن أن تكون لغيره صفة مستقلّة تكون مصدراً لفعله ملتبساً بحمده، أي: متّصفاً بصفاته، فإن الحمد الحقيقي هو الاتصاف بصفاته الكمالية التي هو بها حميد وذلك هو تصحيح مقام التوكل وتحقيقه بنفي الصفات التي هي مبادىء الأفعال من الغير، وإذا تجرّدت عن صفاتك بالاتصاف بصفاته شاهدت إحاطة علمه بالكل، فاكتفيت به عن سؤاله في دفع جناياتهم عنك وجزاء إيذائهم لك، وشاهدت قدرته على مجازاتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام:

« حسبي من سؤالي علمه بحالي ».

وذلك معنى قوله: { وكفى به بذنوب عباده خبيراً الذي خلق السموات والأرض }

أي: احتجب بسموات الأرواح وأرض الأجسام { وما بينهما } من القوى في الأيام الستة التي هي الآلاف الستة من ابتداء زمان آدم إلى محمد عليهما السلام، لأن الخلق ليس إلا احتجاب الحق بالأشياء والأيام هي أيام الآخرة لا أيام الدنيا؛ إذ لم تكن الدنيا ثمة ولا الشمس والنهار

{ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ }[الحج، الآية:٤٧].

{ ثم استوى على } عرش القلب المحمدي في السابع الذي هو يوم الجمعة،

أي: يوم اجتماع جميع الأوصاف والأسماء فيه، وذلك هو معنى الاستواء في الاستقامة بالظهور التامّ والفيض العام الذي هو الرحمة الرحمانية ولهذا جعل فاعل الاستواء اسم الرحمن دون اسم آخر إذ لا يكون الاستواء بمعنى الظهور التام إلا به، ويمكن أن تؤوّل الأيام بالشهور الستة التي يتمّ فيها خلق سموات أرواح الجنين وأرض جسده وما بينهما من القوى والاستواء بالظهور التام على عرش قلبه الذي كان على ماء النطفة قبل خلقه ما خلق في الشهر السابع الذي أنشأه فيه خلقاً آخر بحصوله إنساناً، والرحمانية بعموم فيضه المعنويّ والصوريّ من قلبه إلى جميع أجزاء وجوده { فاسئل به خبيراً } اسأل عارفاً به يخبرك بحاله واسأله في حالة كونه عالماً بكل شيء.

{ وإذا قيل لهم اسجدوا } أي: إذا أمرتهم بالفناء في جميع صفاته وطاعته بها أنكروا ولم يمتثلوا أمرك لقصور استعدادهم عن قبول هذا الفيض وعدم معرفتهم لهذا الاسم لعدم احتظائهم من جميع الصفات أو وجود احتجابهم عنها.

{ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً }

{ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً }

{ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ هَوْناً

وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً }

{ وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً }

{ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً }

{ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً }

{ تبارك الذي جعل في } سماء النفس بروج الحواس { وجعل فيها } سراج شمس الروح وقمر القلب { منيراً } بنور الروح { وهو الذي جعل } ليل ظلمة النفس، ونهار نور القلب يعتقبان { لمن أراد أن يذكر } في نهار نور القلب العهد المنسي وينظر في المعاني والمعارف ويعتبر { أو أراد } في ليل ظلمة النفس { شكوراً } بأعمال الطاعات واكتساب الأخلاق والملكات { وعباد الرحمن } أي: المخصوصون بقبول فيض هذا الاسم لسعة الاستعداد { الذين يمشون على الأرض هوناً }

أي: الذين اطمأنت نفوسهم بنور السكينة وامتنعت عن الطيش بمقتضى الطبيعة فهم هينون في الحركات البدنية لتمرّن أعضائهم بهيئة الطمأنينة { وإذا خاطبهم } أهل السفاهة يسلمون مقالهم ولا يعارضونهم لامتلائهم بالرحمة وبعد حالهم عن ظهور النفس بالسفاهة وكبر نفوسهم بالتقوّي بنور القلب عن أن تتأثر بالإيذاء وتضطرب { والذين يبيتون } أي: الذين هم في مقام النفس ميتون بالإرادة { سجداً } فانين بالرياضة قائمين بصفات القلب أحياء بحياته لله قائلين بلسان الحال الذي لا تتخلف عن دعائه الإجابة { ربنا اصرف }.

{ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً }

{ وَٱلَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلاَّ بِٱلْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً }

{ يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً }

{ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً

فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }

{ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَاباً }

{ وَٱلَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً }

{ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً }

ولما وصفهم بالتزكية التامة والفناء عن جميع صفات النفس من الرذائل المذيقة المورطة في عذاب جهنم الطبيعة ومستقرّ السوء والعاقبة الوخيمة عقب وصفهم بالتحلية التامة من الاتصاف بجميع أجناس الفضائل الأربع، وذلك هو حياتهم

بالقلب بعد موتهم عن النفس، كما قيل: مت بالإرادة تحيا بالطبيعة، فالقوام بين الإسراف والإقتار في الإنفاق هو العدل والتوحيد المشار إليه بقوله:

{ لا يدعون مع الله إلهاً آخر } هو أساس فضيلة الحكمة الذي إذا حصل وقع ظله الذي هو العدل في النفس فاتصفت بجميع أنواع الفضائل، والامتناع عن قتل النفس المحرّمة إشارة إلى فضيلة الشجاعة، والامتناع عن الزنا فضيلة العفّة. ثم ذكر من في مقابلتهم من المحجوبين من فيض الرحمة الرحيمية التي في ضمن الرحمانية الذين لا يستعدون لقبول عموم فيضه فلا يختصون به وإن كانوا لا يخلون من فيضه الظاهر الشامل للكل فقال: { ومن يفعل ذلك }

أي: يرتكب جميع أجناس الرذائل حتى الشرك بالله { يلق } جزاء الإثم الكبير المطلق، وهو مضاعفة العذاب الروحاني والجسماني بالاحتجاب الكلي وهيئات الهيكل السفلي { يوم القيامة } الصغرى والخلود فيه على غاية الهوان.

{ إلا من تاب } رجع إلى الله وتنصل عن المعاصي فبدّل الشرك بالإيمان واستبدل الرذائل بالفضائل { فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات } بمحو الهيئات عن نفوسهم وإثبات هذه { وكان الله غفوراً } يستر صفات نفوسهم بنوره { رحيماً } يفيض عليهم الكمالات بوجوده، وهذه هي التوبة الحقيقية. ثم بيّن بعد ذكر التوبة الحقيقية حال أهل السلوك فقال: { والذين لا يشهدون الزور }

أي: لا يحضرون أهل الزور المشتغلين بمتاع الغرور، فإن أهل الدنيا أهل الزور يحسبون الفاني باقياً والقبيح حسناً ويعدّون المعدوم موجوداً، والشرّ خيراً، فهم الكذّابون المبطلون، الخاطئون، أي: يعتزلونهم بملازمة الخلوات وإيثار الطاعات وإقام الصلاة { وإذا مرّوا باللغو } أي: الفضول غير الضرورية تركوها وأعرضوا عنها { ومرّوا } بها مكرمين أنفسهم عن مباشرتها، قانعين بالحقوق عن الحظوظ وهم الزاهدون بالحقيقة، التاركون المجرّدون.

ثم لما بيّن الزهد الحقيقي والتجريد قرن به العبادة الحقيقية والتحقيق بقوله: { والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربّهم } أي: كوشفوا المعارف والحقائق وتجليات الصفات والمشاهدات { لم يخرّوا } على العلم بتلك الآيات من المعارف والحقائق { صمّاً } بل تلقوها بآذان واعية هي آذان القلوب لا النفوس، وعلى مشاهدتها { و } تجليها { عمياناً } بل أحدقوا نحوها ببصائر جديدة مكحلة بنور الهداية.

{ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً }

{ أُوْلَـٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً }

{ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً }

{ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً }

ثم وصف طلبهم للترقي عن مقام القلب إلى مرتبة السابقين والاستعانة بالله عن تلوين النفس وصفاتها لينخرطوا في سلك المقرّبين بقوله:

{ والذين يقولون ربنا هب لنا من } أزواج نفوسنا وذريّات قوانا ما تقرّ به أعيننا من طاعاتهم وانقيادهم خاضعين، وتنوّرهم بنور القلب مخبتين غير طالبين للاستعلاء والترفع والاستكبار والتجبر { واجعلنا للمتقين }

أي: المجرّدين { إماماً } بالوصول إلى مقام السابقين { أولئك يجزون } غرفة الفردوس وجنة الروح بصبرهم مع الله وفي الله عن غيره { ويلقون فيها تحية } خلود حياة { وسلاماً } سلامة وبراءة عن الآفات،

أي: يحييهم الله بإبقائهم سرمداً ببقائه ويسلمهم بإيتائهم كماله كما قيل:

{ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ } [الأحزاب، الآية: ٤٤]، وقال:

{ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ } [إبراهيم، الآية: ٢٣].

{ ما يعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم } أي: لو لم يكن طلبكم لله وإرادتكم لكنتم شيئاً غير ملتفت إليه ولا معبوء به كالحشرات والهوام، فإن الإنسان إنما يكون إنساناً وشيئاً معتدّاً به إذا كان من أصحاب الإرادة والطلب، والله تعالى أعلم.